نظرة خاطفة

تطورات الأدب الحديث

للأستاذ فؤاد الطوخي

لو بعث أعرابي فى الجاهلية وقرأ ما تفيض به أقلام الكتاب فى هذا العصر لأعجزه فهم المعانى والمرامى ، بل لأعجزه فهم التراكيب والأساليب، ولخرج من مطالعته وكأنه لم يقرأ ولم يفقه شيئاً . ذلك لأننا نكتب بلغة الغرب وندرك الأشياء بعقول هى أقرب ماتكون إلى عقول الغربيين، ونستمد منهم العلم ونستوحيه، ونرتوى من مناهلهم ونغترف ، ولا يزال العالم العربى كله يترسم خطاهم ويلف لفهم ، ويعاونه على ذلك مرونة اللغة ، فهى تتسع لمختلف الأساليب وشتى التراكيب ، ولا تنقصها الابانة عن معانى الغرب كما أبانت عن معانى الشرق .

وهذا التطور الناشيء من طغيان أدب الغرب على اللغة قد تفلت موازينه على التطورات الطبيعية التى تصيب اللغات من توالى الأجيال وما يلابسها من اختلافات فى عالم الفكر وأساليب الحكم وصعود فى المشاعر الانسانية وهبوط . وما الأدب الرفيع إلا دعامة من مقومات الأمة ، ومظهر من مظاهر حياتها ونزعاتها؛ بل ترجمان نهضتها يكشف عن أسرارها ويظهر ما كمن فى نفسيتها وما استتر . فلما تهيأت أسبابه إبان النهضة المصرية الحديثة فى عهد الخديو اسماعيل لم يكن بين المصريين من يعرف الصحافة أو يستسيغها ، فنشطت جماعة من أدباء سوريا ممن كان الاستبداد التركى قد أرغمهم على الهجرة إلى أرض الفراعنة — إلى غرس بذور الأدب ، فرحب بهم اسماعيل باشا وشجعهم على إصدار الصحف والمجلات وإنشاء فرق التمثيل وقرض الشعر وتأليف الكتب الأدبية . واتصلت مصر بسوريا اتصالاً أدبياً وثيقاً ، ولسنا نقول إنهم أجادوا فيما أخرجوه للناس بادىء ذى بدء ، ولكن معظم تلك الأقلام على اختلاف ألوانها لا يروقك منها اليوم إلا النذر اليسير . ولم ينزل المصريون إلى هـذا الميدان إلا بعد فترة من الزمان . وكان الأزهر الشريف يومئذ يغط فى الجمود غطيطاً حتى جاءه جمال الدين فأحيا مواته ونفخ فيه من روحه ، وغادر مصر بعد قليل وقد أسلم راية النهضة إلى الأستاذ الامام العظيم الشيخ محمد عبده ، فعمل مع من التف حوله من تلاميذه الأخيار على إعلاء كلمة الأدب ، وأرسل من صحن الأزهر الشريف شعاعاً من النور لم يلبث أن بسط رواقه على بعض الأرجاء. ومنيت هذه النهضة بصدمات عنيفة يوم أرغم نصيرها ومحييها الخديو اسماعيل على اعتزال الحكم ، وعاد الجمود ولكن لايمكث طويلا ، وإنما يمكث إلى أن تدور دورة الأيام وتهدأ الأعصاب ويستجم الأدب قوته ويستعيد سيرته؛ إذ هيهات أن يحول حائل دون نمو شجرة أحكم زرعها وقوى أصلها . وما هى إلا عاصفة أثارها العرابيون حتى نفض الأدب عنه غبار الهدأة وخرج يتلمس مكانه تحت الشمس ، وكان الشيخ محمد عبده فارس هذا الميدان أيضاً فجال بقلمه وصال، بل كان رئيس الوزارة نفسه البارودى شاعرا وكاتبا ، وملأ عبد الله نديم الميادين والطرقات بخطبه وقصائده وأزجاله ، وعالج آل المويلحى فنونا من الأدب لا تزال بلاغتها تهز القلوب وتثير الشجون . وجاء الاحتلال فجاء معه الجمود للمرة الثالثة ، ولكن لا ليستقر أيضاً وإنما يهدأ قليلا ريثما يعود الأدب من جديد ملكا ذا سطوة وبأس منادياً بالحرية مصورا شعور الأمة بمقت الحكم الأجنبي . وفى ذلك الحين بدأ نجم شوقى يعلو ويلمع ، وتلاه حافظ ، وتربع على دست الصحافة الشيخ على يوسف فى دار « المؤيد » ثم تلاه الاستاذ الامام أحمد لطفى السيد فى دار « الجريدة » وكانت لاتزال الصحافة السورية راجحة الكفة قوية الشكيمة . وأناخت على الأدب الحرب العظمى بكلكلها ولكن ما جاءت سنة ١٩١٩ حتى وصل الأدب ما انقطع ، ولا حق ما سابق ، وهب أقوى

فقال : الآن أصلحت بين الناس وأصـ . الناس للناس ، ثم رمى بطرفه إلى الجهات الأربع فاذا معنى الرحمة قد ملأها واستفاض عليها ، فهز جناحيه صاعدا فى فلك النور ، وفى أذنيه تهليل الناس وصلواتهم ، حتى إذا انتهى إلى أفقه الأعلى كانت الكلمة الأخيرة التى دخلت معه إلى سماء الله هى نفس الكلمة الأولى التى خرجت من سماء الله

« وعلى الأرض السلام وفى الناس المسرة »

سلطانا وأكبر نفوذا . فازدادت المجلات والجرائد المصرية دون السورية زهورا وانتشارا ؛ واتسع مجال التأليف ، وتعددت نواحي التفكير .

وأبرز ما يبدو فى الأدب العربى الحديث هو الحيرة وعدم الاستقرار والخلو من الوحدة والتجانس والتماثل ؛ فهو لم يعد بعد طور التكوين ولم تقم له شخصية جلية فهو فى ذلك إنما يتمشى مع روح الأمة ومشاغلها وأمانيها ، فى مصر مثلا كان أكبر مايشغل الأذهان ويتغلغل فى النفوس هو السعى فى سبيل الحرية ، فانطبع الأدب بهذا الطابع وظهر أثره فى الصحف والمجلات والخطب والتقارير وما إلى ذلك ، فتغنى الشعراء بأناشيد وطنية تمس نواحى الأمل تارة ، ونواحى الألم تارة أخرى ، وكلما تطورت المواقف تطور معها الأدب وجرت بها أقلام الكتاب من حيث يشعرون أو لا يشعرون .

ومن العجب العجاب أن الأدب الرفيع قد لاقى من صنوف التنكيل والمقاومة من جبروت الحكومات المستبدة ، ومن استهتار الجمهور به ومن إغضاء أغنيائنا عن تعضيده ما لو حدث فى غير مصر لتحطمت الأقلام ونضبت الأفهام ، وساد الظلام ، ولكن كتابنا استبسلوا واحتملوا الفواجع فى سبيل الاعراب عن آرائهم الحرة ، فنالوا تقدير العارفين وخلدوا فى تاريخ مصر المجاهدة صحائف من نور . على أنه لن يمر زمن طويل ، ما لم تتأثر مصر بمؤثرات دولية ليست فى الحسبان ، حتى تهب من أقصاها إلى أقصاها إلى الأخذ بأسباب الاصلاح ويتبع ذلك تطور وتجديد فى عالم الفكر وعالم القلم ، وتدور رحى المعارك الصحفية على الأعمال لا على الأشخاص ، وعندئذ تبرز الشخصية المعنوية للأمة وتبرز معها شخصية الكتابة والكتاب فتستقر فى قرار مكين وتصبح فى مأمن من زعازع السياسة ومنازع الأغراض فلا يعصف بها استبداد ، ولا يلويها عن قصدها حب فى سيطرة أو استعباد

على أنه رغم تلك الاضطرابات العامة والقلاقل الجمة ، فان مصر بحمد الله قد ظفرت بطائفة من الكتاب لا تقل علماً وأدباً وقوة ومغامرة عن أمثالهم فى أعظم الأمم المتحضرة المجاهدة ؛ وما ذلك إلا لما هم عليه من ذكاء نادر وعلم وافر ومضاء فى العزيمة وقوة فى الشكيمة . وإذا حق لمصر أن تفخر بأبناء الجيل الحاضر فمن الانصاف أن نضع فى مقدمتهم الأساتذة الكرام « العقاد ، والزيات ، وهيكل ، وطه حسين ، والمازنى ، وزكى مبارك ، وسلامة موسى » وغيرهم .

والظاهر أن الحكومة قد فطنت إلى ضرورة تشجيع الأدب فقررت منذ عام وبعض عام منحهم جوائز على موضوعات يتبارون فيها ، فكانت فكرة موفقة ، ولا نعلم لماذا لم تستمر فى ذلك ! ولعلها تذكر أن من أكبر الأسباب التى دعت إلى ظهور طائفة كبيرة من الأدباء والشعراء الخالدين فى العالم العربى ، الصلات القيمة والمنح الكريمة التى وهبها إياهم الخلفاء تقديراً لنبوغهم وتشجيعاً لغيرهم . ولسنا نطالب بغير العدالة — إن لم يكن الحق — إذا نحن وجهنا نظر حكومتنا إلى ضرورة منح المجلات الراقية فى مصر إعانات كفيلة بتوطيد دعائمها حثاً لها على الاستزادة من خدمة قرائها تعميماً للثقافة وتعضيداً للعلم ، ولها فى ذلك أسوة بالمدارس الحرة ودور المسارح والملاهى

فؤاد الطرزى

التصوف الإسلامى

فى الأدب والأخلاق

بقلم الدكتور زكى مبارك

يقع هذا الكتاب فى مجلدين كبيرين وثمنهما معاً أربعون قرشاً ، وهو يطلب من المكاتب الشهيرة فى البلاد العربية

ويطلب بالجملة من مطبعة الرسالة